عبد العزيز كوكاس

الفيلسوف النمساوي هانس كوكلر يفكك أسس طغيان الغرب ويدافع عن العدالة

2-1

عرف عن هانس كوكلر Hans Köchler الفيلسوف النمساوي وقوفه إلى جانب الدول المستضعفة، وعبر عن مواقف جريئة ضد حرب الإبادة التي تشنها إسرائيل ضد الفلسطينيين بغزة، وظل يطالب من خلال كتاباته أو مواقفه في مختلف مواقع المسؤولية الأممية التي تحملها بضرورة إقرار سلام عادل وعدالة وديمقراطية حقيقية.. فقد عمل مستشارا للأمم المتحدة، واعتبر أحد أهم فلاسفة العالم اليوم بسبب شهرته الكونية والطبيعة الأخلاقية والإنسانية لمواقفه وتحليلاته العميقة، لقد تميز بدفاعه عن جعل الفلسفة ليس مجرد قضايا ميتافيزيقية ومجردة، بل موجودة أساسا لخدمة الإنسان وجودا وفكرا وعلاقات مع أخيه الإنسان ومع المحيط، أفرادا وجماعات.. يعد الفيلسوف النمساوي هانس كوكلر، الرئيس السابق لكلية الفلسفة بجامعة إنزبروك ورئيس المنظمة العالمية للتقدم بفيينا، أحد أبرز الفلاسفة الغربيين بحكم تعدد مجالات تخصصه من الفينومينولوجيا والفلسفة السياسية والقانونية. ويعتبر أبرز المؤولين الجادين لفكر وفلسفة مارتن هيدجر، يقول عنه مترجم العديد من مؤلفاته المفكر المغربي حميد لشهب المقيم بالنمسا لما يفوق 30 سنة: «ما يميز الفيلسوف هانس كوكلر عن باقي الفلاسفة الغربيين الحاليين هو اهتمامه الخاص بالحوار بين الثقافات الغربية وثقافات قارات وبلدان أخرى، وبالخصوص العالم ثالثية منها. وقاده هذا الاهتمام إلى وعي ميكانيزمات اشتغال السياسات الغربية وإرادة هيمنتها والرغبة في الاستمرار في استغلال خيرات العالم الفقير والتأثير المباشر في سياساته، بل إملائها في أفضل الظروف وفرضها بالقوة في الكثير من الأحيان. ونتيجة هذا هو بناء كوكلر لفلسفة متضامنة كليا مع المستضعفين في العالم، في القارات الخمس، بأبعاد نقدية عميقة للممارسات الغربية على أرض الواقع والمطالبة في كتاباته ومواقفه بتطبيق مبدأ العدل أو العدالة والمساواة بين البشر، لتحقيق السلام في هذا العالم".

صدر للبروفيسور كوكلر أكثر من 700 مؤلف ودراسة ومقالة في منابر عالمية متعددة، تُرجمت الكثير منها إلى لغات متعددة، ويُعتبر من الوجوه الفلسفية الغربية الحاضرة بقوة في الساحة الثقافية العالمية، أسس المنظمة العالمية للتقدم بفيينا عام 1972، وكان بين 2003 و2008 عضوا في المجلس الاستشاري الدولي للجنة الأمم المتحدة للديمقراطية، وقد تعرف القارئ العربي والمغربي خاصة عن قرب على هذا المفكر الكبير من خلال كُتبه المترجمة وأيضا من خلال سيرة حوارية للمسار الفكري والنقدي للبروفيسور هانس كوكلر، الذي صدر عن منشورات النورس تحت عنوان «هكذا تكلم كوكلر»، أنجز الحوار/السيرة حميد لشهب وقدم له الكاتب ياسين عدنان.. هنا وبموافقة من المفكر النمساوي نفسه، ندرجه أهم مواقف كوكلر الثقافية والفكرية والسياسية، ونتعرف عن كثب على شخصية وشفت الفكر الفلسفي المعاصر بالصدق والعمق اللازمين.

الغرب خرب شعوبا وحضارات وثقافات بسبب خضوعه لثقافة أحادية ولجنون العظمة

الخطير والاستثنائي اليوم هو أن الغرب في عز جنون عظمته أوهم العالم بقضية صراع الحضارات وفي العمق هو صراعه من أجل القضاء على الحضارات الأخرى والإبقاء على ما يعتقد أنها حضارته، وفي استشعاره بأنه خسر معركة الضغط على الأمم الأخرى للقبول غير المشروط لنمط حياته وثقافته، بدأ حروبا حقيقية وليس صراعات فقط ضد دوائر ثقافية بعينها، وأعطي هنا مثالا على ذلك بحربه الشرسة واللا قانونية ضد العراق وسوريا وليبيا ودول عربية وإسلامية أخرى، موهما العالم بأن هذه الدول لا تحترم ما يعتبره أو يريد أن يوهم بأنه جزء لا يتجزأ من حضارته، وأقصد هنا مثلا حقوق الإنسان وحقوق الأقليات والحقوق الدينية والسياسية، والواقع أنه استعمل هذه الأمور ليغتصب ثقافة شعوب أخرى لم ترضخ أو لم ترض بالرضوخ إلى منطق الخضوع إلى ثقافته أحادية الجانب، والنتيجة الواقعية التي انتهت إليها هذه السياسة هي أنها خرّبت شعوبا بأراضيها وثقافاتها وحضاراتها وماضيها ومستقبلها، فعوض تحقيق الحرية التي وعد بها الغرب والمساواة وحقوق الإنسان وتقسيم الخيرات، ترك وراءه الخراب إلى حد الساعة، وما نلاحظه حاليا هو زعزعة منطقة بأكملها سياسيا واقتصاديا وثقافيا بل أيضا بشريا بهروب ملايين الناس من بلدانهم، بسبب الحروب ليعيشوا في المهجر في ظروف صعبة جدا إنسانيا وماديا وثقافيا، بمعنى ما، فإن أطروحة صدام الحضارات هي في العمق شبيهة بالنبوءة الدينية وكأن فوكوياما نصّب نفسه نبيا للسياسة الغربية الهمجية في طحن الشعوب الأخرى وهي تُشبه النبوءة الدينية لأنها حملت في وقتها على الأقل بالنسبة للغرب أمل السيطرة الحقيقية على كل الأرض..

عدوانية الغرب والعولمة غير المنضبطة تجعل حوار الثقافات اليوم صعبا

أصبح حوار الثقافات الذي يستحق هذا الاسم أكثر صعوبة في العقود القليلة الماضية، وهي صعوبة ناتجة عن العولمة غير المنضبطة من جهة، والسياسة الخارجية العدوانية للدول التي رأت نفسها منتصرة في الحرب الباردة من جهة أخرى. عندما ألقيت خطابي الرئيسي حول حوار الحضارات في جامعة إنسبروك في أكتوبر 1972، كان الصراع بين الشرق والغرب، بين العالم الاشتراكي والرأسمالي، هو العنصر الحاسم في العلاقات الدولية. كانت فكرة الحوار بين الثقافات جديدة في ذلك الوقت وتم استقبالها أيضا بشكل محايد وإيجابي نسبيا في الأوساط السياسية والدبلوماسية، وهذا ما تمكنت من اكتشافه في جولتي العالمية عام 1974.

منذ نهاية المواجهة الأيديولوجية بين القوتين العظميتين في ذلك الوقت، تم إطلاق كليشيهات ثقافية جديدة للعدو، وكانت مناقشات مفتوحة وغير متحيزة بين ممثلي وجهات نظر وقيم مختلفة - خاصة في مجال الهوية الدينية - محفوفة بالمخاطر مع خطر الفشل أكثر من ذي قبل. إن محاولة الغرب، بقيادة الولايات المتحدة، وضع بصمتها على العالم بأسره، وبشكل خاص على العالم الإسلامي، وفرض النموذج الغربي للدولة والحياة على الشعوب بالقوة، هو «تحالف الحضارات»، كما وصفتها الأمم المتحدة التي روجت لها وفقدت مصداقيتها بسببها أعقاب أحداث عام 2001.

كيف يمكن أن يثق المرء بالدول التي -باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان - تتدخل بالعنف في العالم الإسلامي وتزعزع استقرار مناطق بأكملها، وهي التي تدعي صداقة الشعوب «مجموعة الأصدقاء Group of Friends»، كما يسمى ذلك رسميا في لغة الأمم المتحدة. يعني كيف يحدث ويمارس هذا التحالف؟ بالإضافة إلى ذلك، أدت الشبكات العالمية المتزايدة بسرعة في مجال الأعمال وتدفقات الاتصالات إلى وجود تصميمات عالمية وأنظمة قيمة مختلفة تمامًا، إذا جاز التعبير، في نفس الوقت وفي نفس المكان، مما يثير قلق الكثير من الناس ويفوق إمكانياتهم. إذا أراد المرء تجنب فشل الحوار- الذي لا بديل عنه كأساس للتعايش السلمي- فيجب عليه أن يتخذ تدابير مضادة لما يجري حاليا. ويتطلب هذا- على الصعيد الدولي نبذ أي شكل من أشكال الإمبريالية الأيديولوجية ومحليا - نهجا «واقعيا» للتنوع يميز بين الإدماج (السياسي والاجتماعي) والاستيعاب Assimilation (الثقافي). هناك مشكلة أخرى مهمة للغاية، تتمثل في كون المناخ متعدد الثقافات قد تسمم، ليس فقط بين الدول ولكن أيضا داخليا من خلال سياسة التبشير وإعادة التربية العنيفة للعالم غير الغربي من طرف الغرب. ستكون إعادة بناء الثقة هنا مهمة عبثية.

لا بديل عن مشاركة الشعوب المهمشة في التبادل العالمي للأفكار على قدم المساواة

لقد فرض العالم الغربي المصنع لقرون إرادته على شعوب آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية ولم يستغل البلدان في إطار الاستعمار فحسب، بل حاول أيضًا تصدير نظام قيمه المجتمعية إلى جميع أنحاء العالم. ومن الأهمية بمكان، بعد نهاية الحقبة الاستعمارية، أن تشارك الشعوب المهمشة حتى الآن وثقافاتها في التبادل العالمي للأفكار على قدم المساواة. ما هو «تقدم» أو «إنساني» أو «مقبول» اجتماعيًا بشكل عام لا يجب تعريفه وتحديده في باريس أو لندن أو واشنطن وحدها. هنا تكتسب المبادرات في البلدان التي كان المرء يسميها سابقا ب»العالم الثالث» أهمية خاصة - خاصة الآن- ذلك أنه وعلى الرغم من انتهاء الاستعمار رسميًا وقانونيًا، إلا أن العالم المتعجرف هو الذي يحدد المعايير الغربية للعالم، و يريد أن يفرضها معيارا ملزما للدول الضعيفة، دون الكف عن استعمار هذه الأخيرة.

توجد في بلدان الغرب أيضا شخصيات تدعو إلى التعاون العالمي على قدم المساواة وترفض الوصاية الثقافية. لكنهم، وهذه قاعدة عامة، لا ينتمون إلى المؤسسة الحاكمة وغالبا ما يتم استبعادهم من المناقشات في وسائل الإعلام، بل يستهدف المرء مصداقيتهم عن عمد. يتعلق الأمر إذن بمثقفين ومجموعات المجتمع المدني القادرين على رؤية السياقات التاريخية الأشمل والذين يسعون جاهدين للتشكيك في استراتيجيات السياسة الغربية التي تقودها القوة. في منظمة التقدم الدولية سعينا للتواصل مع هذه الشخصيات والمنظمات وأطلقنا بشكل متكرر مشاريع تدين الممارسات غير العادلة للغرب. وفي هذا الإطار قمنا أيضا- بالتعاون مع اليونسكو- بنشر «نظام عالمي جديد للمعلومات والاتصالات».

هانس كوكلر يسطر شروط بناء حوار سياسي واقتصادي

إن مجالات السياسة والاقتصاد- الدولية والوطنية- هي بطبيعتها مدفوعة بالمصالح. وهذا الأمر واضح أيضا في القول المنسوب إلى المستشار الألماني بسمارك، وأحيانا لديغول، القائل بأن الدول ليس لها أصدقاء، بل مصالح فقط. بعبارة أخرى: التحالفات السياسية والاقتصادية («الصداقات») تكون انتهازية دائما. لا تدوم للأبد، بل تتغير وفقا لمجموعة المصالح ذات الصلة. ولهذا السبب بالتحديد، تتمتع الثقافة بأهمية خاصة في العلاقات بين الدول، لأنها -على عكس السياسة أو الاقتصاد- ليست عابرة ومؤقتة، ولكنها - كعنصر يخلق هوية للمجتمع- دائمة، أي أنها تبقى عبر الأجيال وتتجاوز الجوانب المؤقتة للحياة اليومية. بهذا المعنى، يمكن للعلاقات الثقافية والحوار بين الثقافات بين الشعوب أن تخلق أساسا للثقة والاحترام المتبادل يتجاوز السياسة اليومية المتغيرة وإعادة التوجيه باستمرار. لن تنجح بداية جديدة في العلاقات بين العالم الغربي والعالم غير الغربي إلا إذا تم ضمان هذا الاحترام الأساسي، الناتج عن الاعتراف المتبادل بالهوية الثقافية.. إضافة إلى هذا، إذا استمر المرء في إعطاء الأولوية لمصالح السياسة والأعمال ووضع الثقافة جانبا، فإن الصراع الجامع على السلطة سيستمر في ظل ظروف العولمة ولن ينتهي الصراع المسلح على المصالح.

«تصدير» الديمقراطية الغربية وتحضير الشعوب المتخلفة مجرد شعار زائف

إن أقوى الدول الغربية اقتصاديا وسياسيا ليست ذات مصداقية في سياستها «تصدير» الديمقراطية. أولاً، تقيس بمعايير مزدوجة وتشير بالأصابع إلى «النقص» الديمقراطي فقط حيث تسمح به مصالحهم الإستراتيجية والاقتصادية. بتعبير آخر: إذا رأت بلدا كمنافس لها في معركة القوة العالمية أو إذا كان هذا البلد متحالفا مع منافس جيوسياسي للغرب، فإنها تسعى إلى الإشارة بالأصابع لعجزه الديمقراطي، وبالتالي تطالبه بالقضاء على هذا النقص. والواقع أن الأمر يتعلق بزعزعة الاستقرار السياسي من أجل حماية المصالح الغربية. كان هذا واضحا أيضا، على سبيل المثال، في «الثورات الملونة Color Revolutions» في أوروبا الشرقية بعد نهاية الحرب الباردة. ثانيًا، للدول التي تسعى بقوة لتصدير الديمقراطية في الغالب نقص في الديمقراطية في بلدانها أيضا؛ من ناحية، لأن سياستها الخارجية غير ديمقراطية (أي محكومة تماما بسياسات القوة)، ومن ناحية أخرى، لأن نظام الدولة الداخلي الخاص بها محكوم من طرف أقلية (حكم مجموعات المصالح القوية) أكثر من كونه نظاما حقيقيا.

يتبع